دراسات

– د. باسم رعد
– د. عادل الأسطة

مفارقات بشأن قبر راحيل وقبور أخرى

د. باسم رعد*

ستظهر هذه المقالة بالإنجليزية في الأساس، لكن د. باسم رعد أجاز لنا ترجمتها للشعراء مشكوراً. الترجمة تمت باستشارة الكاتب (هاتفياً) بخصوص بعض مناطق الكتابة.
تتحدث المقالة نظرياً وتاريخياً عن فكرة الاستحواذ المعرفي الذي يكون مسببا للسيطرة السياسية على المكان، هذه الفكرة هي ما يشغل أبحاث د. باسم رعد الأخيرة، وسنقوم بترجمة بحثه عن الحضارة الكنعانية والترسكندية في إيطاليا وما جرى من سلب معرفي طمس معالم حضارية كثيرة. غير أن ما يطرحه د. باسم هنا ذو علاقة بالأحداث الجارية وبانتفاضة الأقصى المباركة، فمناطق المواجهات تمركزت في جملة المواقع فيما نسميه «قبة راحيل» في بيت لحم، وفيما نسميه أيضاً «قبر يوسف» في مدينة نابلس. المكانان لا علاقة لهما بالأسماء التاريخية، لكن للسياسة أغراضها حين تلجأ للدين تستغله وتؤوله. من هنا تأتي مقالة باسم رعد لتنظر إلى حوادث مشابهة في التاريخ، بالطبع تاريخ المنطقة.

الاستحواذ المعرفي المسيس
«يقال إن نمروداً مثل هومر دفن في أماكن عدة» مارك تواين Mark Twain، «أبرياء في الخارج» (م).
قد تكون الأديان قد تطورت ببطء، حيث إنها قد بدأت في الظهور منذ ماض سحيق، واليوم، رغم فهمنا ووعينا لطبيعة تطورها، إلا أن الدين ما زال يستخدم بطريقة حرفية ليخدم مزاعم وطروحات مختلفة. هذا الاستخدام لا يحدث في العادة من منطلقات إيمانية أو روحانية، ولا حتى بسبب جهل من يتبنى مثل هذه الطروحات بطبيعة الدين، بل عادة ما يتم ذلك لأن القراءة الحرفية في الكثير من الأحيان تكون مفيدة وذات نفع على الصعيد السياسي. قد نستطيع فهم مثل هذا الافتراض عند النظر إلى الصراع

الديني المزمن على المواقع الدينية في بلاد أطلق عليها مجازاً «الأرض المقدسة». إنني هنا أشير تحديداً إلى قبري راحيل في بيت لحم ويوسف في نابلس. نستطيع أن نفهم الفرضيات العامة والمزاعم الشائعة حول هذين المكانين إذا ما قرأنا، بدقة، التناقضات والمفارقات التي رافقت مراحل تطور إنشاء القبرين، غير أنه، لحظتها، الكثير من الأشياء ستتداعى، ليس فقط على الصعيدين المادي والسياسي، بل، والأهم، على صعيد وعينا وإدراكنا. وإذا ما أردنا تجنب المزيد من التدهور، علينا أن نبدأ نظرة مغايرة للتاريخ، وقد يكون من الضروري أن نعيد النظر أيضاً في فهمنا لما هو «مقدس».

التفاصيل الإسلامية للقبور

يصف هنري موندريل Henry Maundrell قبر راحيل قرب بيت لحم في العام 1703 فيقول: إن القبر «يبدو، وبجلاء، ذا طابع معماري تركي حديث»، وبالنسبة لموندريل، رجل الكنيسة الأصولي الذي ينتسب «لشركة الشرق» Levant Company، فإن كلمة «تركي» لا تعني عثمانيا ولا تركيا بالمفهوم الوطني، بل تشير إلى ما هو إسلامي. ويشير الكاتب التبشيري وليام ثومبسون William Thomson صاحب كتاب «الأرض والكتاب» والصادر عام 1859 إلى أن «قبر يوسف» قرب نابلس يعود للمسلمين المحليين، وهم من يقومون على حمايته والحفاظ عليه.

وبطريقة مشابهة، يكتب مارك تواين Mark Twain المعروف بتشكيكه في كل شيء بأن قبر يوسف «بني على الطراز وضمن التقاليد الإسلامية». وحين يسجل هؤلاء الرحالة مثل هذه الملاحظات، فإنهم لا يميلون لإظهار أي نوع من التعاطف مع السكان الأصليين للمكان ولا يعبرون عن حبهم لمثل تقاليد وعادات هؤلاء السكان.

في الحقيقة، الكثير من الرحالة الغربيين عبروا في كتاباتهم عن مواقف مؤازرة لوجهة النظر الصهيونية في عصر ساده الشك وعدم اليقين عندما لم يستطيعوا جسر الهوة بين توقعاتهم المبنية على الأثر التوراتي وبين الحقائق الميدانية على أرض الواقع. وبدلاً من أن يروا العهدين القديم والجديد مصدراً لمجموعة من العقائد الدينية وينظروا إلى الكتاب بوصفه أثراً أدبياً أرادوا أن يعيدوا خلقه وإنتاجه ليصبح تاريخاً، وأرادوا أيضاً تتبع هذا التاريخ المُتخيل الذي تمت إعادة إنتاجه وخلقه في الواقع وفرضه على الجغرافيا. ومع هذا، يجب ألا ننزع للقول إن كل الرحالة الغربيين وقعوا تحت سطوة مقل هذا الجنون لإيجاد دلائل تثبت ما ذهبت إليه الرواية التوراتية أو حتى تخيل مثل هذه الدلائل. قلة مثل هيرمان ميلفيل Herman Melville ذهبوا خلف تقاليد الرحالة في تفسير جذور الدين بناء على المواقع الجغرافية. بجانب ذلك، حذر الكثير من الرحالة من مخاطر الربط الحرفي بين الأماكن والسرد التوراتي، وذهبوا للقول بعدم دقة وثبات السرد التوراتي وعدم توافقه أو قربه من الدلائل المكانية للمواقع التي يتحدث عنها. جورج سانديس George Sandys، يصف مثل هذا اللاتوافق في الأزمة تكمن في «عدم دقة تاريخ وجذور» هذه الأماكن. غير أن الكثيرين من غلاة المتدينين لم يستطيعوا مقاومة الانطباع أن هؤلاء الرعاة والمزارعين الفلسطينيين يذكرونهم بـ«الشخصيات التوراتية» الشرقية. أما بالنسبة للرسامين الذين تقودهم فكرة خلق الدليل على ما يذهبون إليه، فإن القرويين الفلسطينيين يبدون وكأنهم

الأثر الوحيد الباقي من العصور القديمة. ونتيجة لذلك، فقد تم تحويل هؤلاء القرويين إلى شخصيات غير مرئية، أي أنهم أصبحوا مجرد فكرة تاريخية لا أساس لهم في الوقت الراهن. ما زلنا نلاحظ مثل هذه الانطباعات القديمة في الدعاية السياحية لـ«الأرض المقدسة» غير أن وسائل الإعلام العامة تظهر وتعزز أنماطاً أخرى مختلفة.

الحربان: 1948 و1967

ما حدث في العقود الثلاثة الأخيرة شكل ارتداداً واضحاً أوصل الأمور لدرجة أكثر سوءاً من ذي قبل. من المفارقة أن تنقلب خرافات الناس ووهمهم عن بعض المزارات إلى حقائق سياسية يتم تثبيتها على أرض الواقع وتنفي وجود هؤلاء السكان. قام الإسرائيليون غداة حربي 1948 و1967 بالسيطرة على مثل هذه المزارات وتوجهوا نحو تبنيها والزعم بأحقيتهم بها. الإشارة الأكثر دقة في هذا المقام ستكون إلى قبري راحيل في بيت لحم ويوسف في نابلس.

الزعم الإسرائيلي كان يرتكز على فرضيات توراتية وينبع من مجرد فكرة تشابه أسماء هذه الأماكن مع الأسماء التوراتية. من نتيجة ذلك، كان قيام إسرائيل بمحاصرة هذه الأماكن الواقعة في قلب المناطق السكنية الفلسطينية بالثكنات والمنشآت العسكرية. مثل ذلك حدث في الحرم الإبراهيمي في الخليل. مثل هذه المزارات تحولت إلى قلاع وحصون يستخدمها الاحتلال الإسرائيلي كمواقع أمامية للسيطرة على المناطق الفلسطينية وإدارة معاركه لقتل الفلسطينيين. وبتحول عكسي ومفارقة غريبة، فقد تحولت هذه المزارات، التي كانت قبل عقود قليلة مقدسة للفلسطينيين، إلى بؤرة تذكرهم بالعنف والظلم الإسرائيلي، وشكلت لهم مصدر غضب وعدوانية نحو الاحتلال. وبذلك أضحت هذه المزارات مناطق خلاف ونزاع وأماكن يموت فيها الكثيرون.

من خلف تحصيناتهم في قبر راحيل، يطلق الجنود الإسرائيليون الشبان على الشباب الفلسطينيين الذين يرشقونهم بالحجارة. ما يحدث أن المصادر الرسمية الإسرائيلية تستطيع أن تفترض أن قبراً يرتبط بالنبي يوسف أو براحيل هو قبر يهودي، وأن الفلسطينيين يحاولون تحويله ليصبح مسجداً (انظر مثلاً الجيروزاليم بوست الدولية International Jerusalem Post 20 / 10 / 2000) من المهم ملاحظة أن كل المقامات التي تستولي عليها المؤسسة العسكرية الإسرائيلية هي مزارات تعود للمسلمين. لم تقم إسرائيل بادعاء ملكيتها لمزارات مسيحية مع أن الكثير من هذه المواقع المسيحية ذات دلالات توراتية مهمة وترتبط بقصص هامة في العهد القديم. علينا الإشارة إلى أن هذه المواقع التي نتحدث عنها تختلف عن الأماكن القليلة التي ارتبطت تقليدياً بالأقلية اليهودية والسامرية التي وجدت في البلاد قبل تسييس الوضع وإقامة إسرائيل. بالطبع، الإشارة هنا لحائط البراق (ما يسمى حائط المبكى). في الحقيقة، لم يحاول السامريون واليهود من سكان فلسطين الزعم بأحقيتهم على أماكن مثل هذه المزارات.

حدة الأزمة وضراوة النزاع ازدادت غداة قيام إسرائل عام 1948 واحتلالها للضفة الغربية وقطاع غزة عام 1976. وبمفارقة غريبة، فإن المشاعية التي يتسم بها الدين كانت النقطة الواهية التي استطاعت إسرائيل من خلالها خلق تبريراتها للسيطرة على هذه المزارات. سنكتشف المزيد من المفارقات حين نمعن

النظر في تاريخ مواقع هذه المزارات الذي تتسم بالاعتباطية ونرى كيف يقوض مثل هذا التاريخ الأطروحات التوراتية المتعلقة بهذه المزارات. علينا ألا نستغرب حين نكتشف أن ما تمارسه سلطة «القوة» في أيامنا هذه هو ذاته ما مارسته سلطات أخرى في حقب تاريخية مختلفة.

«هلينا» والاستحواذ على الوثنية

كيف تحولت أماكن (مزارات) أخرى في القدم؟ الفضل يعود في تحديد الكثير من الأماكن التوراتية لهلينا أم الإمبراطور البيزنطي قسطنطين في القرن الرابع الميلادي. لا نعرف تحديداً مدى قوتها، غير أن تأثيرها في هذا المجال موثق بشكل دقيق.

أصدر الإمبراطور قسطنطين أمراً ببناء الكنائس على الأماكن (المزارات) المختلفة في محاولة لقمع قوة التقاليد الوثنية والاستحواذ عليها. علينا أن نلاحظ أن الكثير من هذه الكنائس بنيت على معابد وثنية. الآن يدرك الباحثون أن كنيسة القيامة أقيمت على موقع كان معبداً لفينس Venus. بجانب قيامها بتحديد أماكن صلب المسيح ومدفنه، يقال إن «هلينا» قامت بتحديد مدفن إبراهيم عليه السلام بعد ألفي سنة من حدوث القصة التوراتية المفترضة. في الكثير من الحالات، ارتكزت «هلينا» في تحديد مواقع هذه الأماكن على ما يتناقله الناس في تقاليدهم أو على خرافاتهم، وفي أحيان كثيرة، كان التحديد وليد الاختراع الفوري. اليوم، يملك الباحثون الدلائل القائلة إن عامود كانت مكاناً لمذبح وثني. من جانب آخر، اعترف القديس جيروم بأن موقعاً آخر في بيت لحم يقدس لارتباطه بالعذراء مريم وبميلاد طفلها المسيح، كان هو ذاته المكان الذي كانت النساء المحليات يبكين فيه الإله أدونيس.

الوثنية الأكثر قدماً

الآن، بإمكاننا الذهاب أبعد من ذلك. فهناك وثنية أكثر قدماً وأكثر أصالة في الوقت ذاته. الكثير من الباحثين، بعضهم إسرائيليون يثيرون أكثر من علامة استفهام حول السرد التوراتي. هذه الأسئلة جاءت بعد الاكتشافات الأثرية وبعد الكشف عن نصوص قديمة سبقت كتابة العهد القديم. وستزداد الأسئلة وتكبر حيرتنا إذا تعاملنا مع التوراة كوثيقة تاريخية وليس مجرد موروث ثقافي. تثار الكثير من الشكوك حول حقيقة وجود ملك مثل «داود».. أكان بالفعل ملكاً.. هل وجد هذا «الغازي» كما يصفه إصحاح «يوشع»؟ هل كانت قصة «الخروج» أكثر من ذاكرة ثقافية كنعانية قام «الإسرائيليون» بانتحالها واعتبارها أساس ثقافتهم. ما يسمى «برج داود» في القدس لا علاقة له بداود. البرج بني خلال الحقبة العثمانية مع باقي سور المدينة الحالي. حتى إن الدلائل الأركيولوجية لا تدعم السرد التوراتي. بجانب ذلك، هناك الكثير من البراهين القاطعة على أن بعض القصص التي وردت في الكتب أحادية النظرة (الكتب الدينية) لم تكن أكثر من تكرار لقصص قديمة «أوغارتية» مثلاً أو آداب أصيلة قد تكون أكثر قدماً. ضمن هذه الرؤية، لن تكون التوراة أكثر من انتحال لتقاليد أدبية قديمة ازدهرت في المنطقة. تعود مثلاً أصول «يهوا» إلى أحد آلهة الطقس في البانتيون الكنعاني كما تدلنا رقيمات تم اكتشافها مؤخراً. الترجمات الأكثر دقة لبعض الإصحاحات، مثل الأناشيد والخروج 6:2–3، قد تحوي براهين على هذا

الانتحال.

الهيكل

أحد الأماكن التي ألهبت المنطقة في الأحداث الأخيرة هو الحرم القدسي الشريف بما فيه قبة الصخرة والمسجد الأقصى (ما يسميه الإسرائيليون جبل الهيكل)، التقارير الأولى تقول إن أريئيل شارون خلال زيارته المدروسة للحرم، كان ينوي وضع حجر الأساس لـ«المعبد الثالث». قبل ذلك، كثف غلاة المتدينين اليهود من هجماتهم على قبة الصخرة. الإعلام الإسرائيلي تحدث عن نداءات تدعو اليهود لبناء الهيكل اليهودي مكان المسجد الأقصى وقبة الصخرة. (انظر مثلاً المقالة التي نشرت في هآرتس الإسرائيلية 17/9/1998 بجانب مقالات أخرى). ومع ذلك، ما زالت السياحة الإسرائيلية تستخدم صورة قبة الصخرة محوراً للجذب السياحي في دعايتها. لقد أصبحت قبة الصخرة محط تقديس المسلمين في كل العالم. هذه حقيقة لا يفيد معها قبول البعض أو رفضهم لها، وهي بجانب ذلك، عمل معماري مثير للانطباع، وتاريخها يمتد في حقبة زمنية يمكن الاستدلال عليها، حيث إنها بنيت في القرن السابع بعد ميلاد المسيح حين شاع الإسلام في القدس. حينها، أمر الخليفة المسلم ببناء المسجد على بقعة تقول المسرودات التاريخية إنها كانت مهجورة. هذا لا ينفي أن بعض الدلائل تشير إلى أن للمكان علاقة بأحداث تاريخية لا يمكن تتبعها. المسرودات التاريخية تختلف في تحديد الشخص الذي دل الخليفة على موقع الحرم الحالي. وعلينا أن نلاحظ التنافس بين المسيحيين واليهود في هذه الحوادث، ومرد ذلك التنافس هو الحقد والكراهية التي اتسمت بها علاقتهم ببعضهم البعض في القرون السابقة. لقد منع الرومانيون، وبعد ذلك المسيحيون البيزنطيون اليهود من العيش في القدس لمئات السنين. عندما نتذكر هذا، نضيع في حيرتنا كيف يزعم اليهود أنهم يستطيعون بعد مئات السنين من البعد عن المكان تحديد موقع «المعبد» بالدقة التي يتظاهرون بها. والمسرودات المسيحية واليهودية تتفق أن الأماكن الدينية كانت مسرحا للمذابح والمجازر خلال الفترة البيزنطية وعقب الاحتلال الفارسي في مطالع القرن السابع الميلادي. كان على الأقل من فضائل شيوع الإسلام في القدس عام 638 ميلادي خلق وضع استطاع فيه المسلمون والمسيحيون واليهود العيش سوية كأهل كتب سماوية. التاريخ لا يذكر حالة تميز واحدة حول ذلك. الملحوظ أن جميع الديانات التي كان منبعها فلسطين ولدت ونمت وتطورت دون أن تؤثر على استمرارية حياة السكان الأصليين في فلسطين. هؤلاء السكان الذين ورثوا عبر التاريخ الفهم الديني المركب. المفارقة الواضحة هنا، كما يشير إليها كارن أرمستونج Karen Armstrong أن المسلمين حين استولوا على القدس «دعوا اليهود للعودة للمدينة المقدسة وتركوا الأماكن الدينية المسيحية دون أن يعطلوها» (نيويورك تايمز، 16/6/2000) حتى تلك الحقبة، لم يكن هناك حتى حي يهودي في المدينة. الدمار الحقيقي حل بالمدينة حين تم استيراد تفسيرات دينية وحركات سياسية من الخارج مثل الحملات الصليبية الأوروبية والصهيونية والنشاطات التبشيرية وغلاة المتدينين واليهود والمسيحانية الصهيونية. حين تم تسييس الفكر الديني وتوظيفه لأغراض سياسية، تمت بالفعل المغالاة في الشعور الديني، كما أدى ذلك إلى غياب التسامح بين الأديان المختلفة.

حائط البراق

حائط البراق (المبكى) من أكثر الأماكن قداسة لليهود، فللحائط علاقة بذاكرة قديمة. بعد تقسيم فلسطين غداة حرب النكبة، لم تكن بمقدور اليهود الصلاة أمامه حتى احتلت إسرائيل ما تبقى من فلسطين عام 1967، بما في ذلك القدس القديمة. من المفترض (طبقاً للطرح الصهيوني) أن يكون الحائط هو ما تبقى من معبد هيرودوس، الذي بناه في الفترة الرومانية، غير أن ما هو موثوق أن هيرودوس مشكوك في يهوديته أصلاً، حيث إنه وفد إلى فلسطين مع قبائل جاءت من شرق الأردن، والكثير من اليهود يرفضون الإقرار في انتسابه للدين اليهودي. المحقق أن معبده دمر تماماً في القرن الأول الميلادي واختفت اليهودية من المدينة لمئات السنين بعد ذلك.

لا يمكن بأي شكل من الأشكال وجود أي دلالة موثوقة تقول إن لحائط البراق (المبكى) علاقة بمعبد هيرودوس المزعوم، أو أن معبد هيرودوس هذا له علاقة أصلاً بموقع الحرم القدسي الشريف الذي نعرفه الآن. الباحثون يدركون جيداً أن المعبد الأول كان مكاناً سبق فكرة الديانة التوحيدية وأن أكثر من إله عبد فيه. بكلمة أو بأخرى، المعبد لم يكن يهودياً. في الحقيقة، هناك إشارة إلى الآلهة الكنعانيين الذين عبدوا في الهيكل وكانوا من الذكور والإناث. مثل هذه القائمة تضم أشيرا (أم الآلهة) وأيل (أبو الآلهة) وعناة وبعل، ولاحقاً أشيرا ويهوا.

رغم كل ذلك الوضوح في الحقائق التاريخية، لم يحاول أحد أن يشكك في حق اليهود في تقديس المكان والصلاة أمام الحائط، ولم يهدد أحد اليهود كما يفعلون هم مع المسلمين فيما يتعلق بوجودهم في مرافق الحرم القدسي الشريف خلال العقود الثلاثة الأخيرة.

من جانب آخر، يبدو أن الممارسات الإسرائيلية الرسمية مثل التنقيبات الأثرية موجهة في الأساس لهدم الموقع الديني للمسلمين أكثر من محاولتها إيجاد دلائل تاريخية في باطن الأرض. فالحكومة الإسرائيلية تهدم الكثير من المنازل المقدسية الواقعة قرب الحائط وتطرد أصحابها الأصليين في محاولة لتوسيع منطقة التنقيب.

التاريخ أكثر عمقاً

كانت «الأرض المقدسة» ساحة تنوع ديني ومعرفي وغنية على مر العصور. لقد كانت فلسطين في العصور السحيقة، خلال الفترة الكنعانية (في الألفية الثالثة قبل ميلاد المسيح)، أكثر غنى وثراءً معرفياً على صعيد الثقافة المادية والاختراع العلمي (الذي يكون نتيجة حتمية لهذه الثقافة). ألم يتم اختراع أول لغة كتابية هنا. وفلسطين، مع ذلك، مرت بتغيرات كبيرة وملحوظة. ومع أن البلاد كانت دائماً هدفاً سميناً لمحاولات السيطرة والاستحواذ المطلق من الطامعين بما يحملون من توجهات، إلا أن سكان البلاد حافظوا على تنوعهم. عند قراءة هذا التاريخ جيداً، وعند استظهار معرفتنا المعاصرة، يصبح من نافل القول بلامعقولية الزعم بأحقية السيطرة على مكان بناءً على فكرة القداسة المطلقة أو الارتباطات الثقافية المحددة أو الرجوع إلى فرضيات أحادية لاتعددية جغرافية حول التوزيع الديمغرافي عبر التاريخ. فلسطين مثل باقي بلدان المنطقة غنية ومعروفة بقدمها في التاريخ، التاريخ الذي يسبق أي تشكل

للهويات المعاصرة. فكل التقاليد الدينية التي نعرفها نمت وتطورت من تقاليد سابقة، بما في ذلك الطقوس والمعتقدات الدينية الوثنية. مثل هذه المعتقدات الوثنية بقي أثرها واضحاً بجلاء حتى بعد سيطرة الديانات التوحيدية على البلاد.

سكان فلسطين الأصليون هم الجماعة الوحيدة التي استطاعت أن تحافظ على أكثر العادات والتقاليد قدماً في موروثهم بفضل استمراريتها في البقاء على أرضها التي تشكل ما نسميه الآن «الأرض المقدسة». للأسف، فإن الفرضية القائلة بوجوب التأكد من أي طرح قبل العمل به تبدو في أدنى درجات سلم الأوليات، فيما تتصدر محاولات استغلال حرفية النص والتفسير الاعتباطي السلم. في ظل هذا، يكون التاريخ هو المهدد الفعلي. أما فهمنا للتاريخ، فلن ينجو من بعض تهديد. لا مجال في ضوء ذلك لتأسيس وعي شامل بتاريخ إنساني صحيح. علينا أن نحترم التقاليد والرموز الثقافية مع كل الحساسيات المرتبطة بها. هذا لا يعني أن نكون سذجا ونسكت أمام الأكاذيب السياسية والتفاسير الضيقة للتقاليد الدينية. على الإسرائيليين مراجعة نهج معرفتهم ومفهومهم للتاريخ، هذا الفهم الذي أدى بهم إلى مثل هذا الزعم وهذه الرواية الوطنية التي يعتقدون بها. الأفق ضيق وغائم فيما يتعلق بإمكانية حدوث تغيير، علينا أن نستعيد الجدل الحاد الذي نجم جراء الاقتراحات البسيطة لتدريس قصائد محمود درويش في المدارس العبرية. الكنيست نفسها أقرت بعدم تدريس الشعر الفلسطيني للطلاب اليهود. (هآرتس، 02/11/2000). على الفلسطينيين من جانب آخر أن يشددوا من ارتباطهم بتاريخهم وتجنب الخلافات الدينية التي قد تفرق بينهم، وعلينا في النهاية أن نفهم التاريخ جيداً.

ترجمة : عاطف أبو سيف

---

* من مواليد مدينة القدس المحتلة، التحق بالجامعات الأمريكية حيث حصل على درجة الدكتوراة في الأدب الأمريكي، يدرس الأدب الإنجليزي في الجامعات الأمريكية والكندية. درس في نهاية التسعينيات في جامعة بيرزيت.. يعيش في تورنتو بكندا.

«انتفاضة الأقصى» : تداعيات أدبية

د. عادل الأسطة*

يثير منظر آباء الشهداء وأمهاتهم الحزن في نفوس المشاهدين الذين ينقسمون ما بين مادح لشجاعة الأم وشجاعة الأب، وهم يودعون ابنهم، ومتسائل إن كانت الزغاريد زغاريد فرح أم زغاريد ترح.
ويقول لنا صراخ والد الطفل الشهيد محمد الدرة، والده الذي أخذ يحتمي بحجر كبير ويحمي ابنه بصدره، فيما يده ترتفع ملوّحة: أن كفوا، فالطفل يقتل، يقول لنا صراخه ويده الملوحة إنه لا يريد لابنه أن يموت أيضاً.
وكنت، وأنا أتابع وجوه الآباء والأمهات، أتساءل عما سيكون عليه الأهل لمدة عامين أو يزيد، أعني الأهل الذين فقدوا أبناءهم، فالأوضاع سوف تهدأ بعد أسبوع أو شهر، ولسوف يصحو، بعد ذلك، الآباء والأمهات، وقد أدركوا أن أبناءهم الذين ربوهم، يوما فيوما، لمدة عشرين عاماً تقل قليلاً أو تزيد كثيراً، سوف يصحو الآباء والأمهات على عالم آخر: عالم الفقدان، ولسوف يصبح الأبناء غائبين حاضرين، ولسوف يصبحون ذكرى، مجرد ذكرى.
ويتساءل المرء، وهو يشاهد مناظر أقارب الشهداء، وإن كانوا يفكرون في مصير أبنائهم، وقد يخطر ببال الفلسطيني أن الإسرائيليين قد ينظمون مظاهرة جديدة يشارك فيها أربعمائة ألف يهودي احتجاجاً، وربما خوفاً من مستقبل غامض، فالإسرائيليون، بعد (أوشفتس) ملأوا العالم صراخاً وبكاء وضجيجاً وكتابة على ما فعله النازيون بهم، وعلى ما لاقاه أطفالهم من معاناة وموت وتشريد وتعذيب.
وكنا، نحن الفلسطينيين، نتعاطف مع ضحاياهم، حتى ونحن نلاحق من جنودهم ونضطهد من قواتهم.
ولقد بحثت شخصياً في مكتبتي عن تلك الكتب التي اشتريتها لأقرأها من أجل معرفة ما عاناه اليهود وما لاقوه في أوروبا، فوجدت أربعة يتحدث كتابها فيها عن طفولة يهود عذبوا وتحملوا ما لا يجدر

بالأطفال تحمله. وجدت رواية (ليون أورلي) (اكسودس) على الرغم من أن كاتبها ليس يهودي الديانة، ووجدت كتاب «مذكرات آن فرانك» الطفلة التي شاهدت مذابح الجنود الألمان ضد اليهود، وكتاب الكاتب اليهودي الحائز على جائزة نوبل للسلام (إسحق سنجر) وعنوان الكتاب «طفولة في وارسو»، ورواية الكاتبة الإسرائيلية (كورديليا دفاردسون) «طفل محروق يلتمس النار»، وهذه ابنة كاتبة ثلاثة أرباعها يهودية سيقت بسبب هذا إلى معسكرات التعذيب.

وتساءلت إن كان الجنود الإسرائيليون قرأوا هذه الكتب والروايات، ولأنني ألحظ أنهم في العشرينيات، فلم يخطر ببالي التساؤل إن كانوا يعرفون معنى الأبوة، وقلت لو أنهم قرأوا أو درسوا هذه الروايات، لربما صوبوا البنادق إلى أعلى قليلاً، لا إلى مواطن قاتلة. قلت، لربما أطلقوا الرصاص في الهواء حتى يخيفوا الأطفال.

ولا أعرف كيف كتب اليهود عن أطفال الجنود الألمان أو عن الأطفال الألمان، وهل تعاملوا معهم، فيما بعد، في نظرتهم المجردة، على أنهم أطفال لا ذنب لهم أم أنهم نظروا إليهم على أنهم أبناء نازيين. فثمة من قال من اليهود إن هتلر لم يكن حالة خاصة، لقد كان الألمان على شاكلته.

وقادتني هذه التساؤلات إلى نصوصنا الأدبية التي أنجزها أدباء فلسطينيون كتبوا فيها عن ذاتهم، وعن الآخر أحيانا. وتساءلت إن كنا إنسانيين إلى تلك الدرجة التي بلغنا فيها مبلغ الخوف، لا على أطفالنا وحسب، وإنما على أطفال أعدائنا وأبنائهم أيضاً.

لقد قادتني هذه التساؤلات إلى نصوص أربعة كتاب هم توفيق فياض وفدوى طوقان وسميح القاسم ومحمود درويش، وما من شك في أنهم كتاب بارزون ويعتد بأسمائهم حين يتحدث عن الأدب الفلسطيني، وهم، بالإضافة إلى قيمتهم الأدبية، لهم قيمتهم السياسية أيضا، إذ غالباً ما يستمع، من السياسيين، إلى آرائهم.

كتب توفيق فياض، في الستينيات، قصة عنوانها «الحارس»، ولا أدري إن كانت ترجمت إلى العبرية أو إلى أية لغة أخرى. وكان فياض، ابن قرية المقيبلة، واحداً من شعب تفرق أيدي عرب، على رأي إميل حبيبي، الذي حوّر المثل المشهور «تفرقوا أيدي سبأ»، وغدت العائلة الفلسطينية موزعة مفرقة لا تستطيع الالتقاء إلا نادراً، وربما مرة واحدة في العام، في بوابة مندلباوم، غدت مفرقة لا تستطيع الالتقاء حتى في الأماكن الذي كان تلم خطه ثور أو حمار يفصل بينهما. وبلغ الأمر مبلغه حين فرضت سلطات الاحتلال على سكان بعض القرى حمل البنادق لحماية الحدود من المتسللين. ويحمل (بو علي)، الشخصية الرئيسة في القصة، البندقية، ولكنه يؤثر أن يرميها في الزبالة لاعناً الحرب وكل الحرب، لأنها تحول بينه وبين رؤية حفيده، بينه وبين رؤية ابنته.

لا أريد أن أتساءل، لماذا لم يترجم العرب هذه القصة إلى لغات العالم كلها، فنحن، كما يقول محمود درويش، بحاجة دائماً إلى يهودي يقص روايتنا حتى يصدقنا الآخرون «أليس هو الشاهد الذي لا يدحض؟ ونحن الذين نحتاج إليه لنتكلم عبره عما يصيبنا، فهل يحق للعربي أن يتحدث في الغرب بلا شاهد يهودي». وهذا ما كان، لقد قص (دافيد غروسمان) في كتابه «الزمن الأصغر»، الذي سرعان ما ترجم إلى اللغات العالمية قصة برطعة، وقصة هذه القرية لا تختلف كثيراً عن قصة قرية توفيق فياض،

ولكن من يصدق أننا بشر وأننا ضحية.
والمرء، وهو يشاهد مناظر الآباء والأمهات ممن استشهد أبناؤهم، يتذكر قصة الحارس، ويتذكر ما شعر به «بو علي»، بطلها:
«شعر بو علي بحنان دافئ عميق يدغدغ أبوته، وقد نفذ صوت أم سليمان العذب، الطافح بالأمومة إلى أعماق قلبه، فابتعد عن الباب بهدوء. وفي عينيه تتراقص صورة ذلك الرضيع، يداعب النوم أجفانه الناعسة.. وأحس بشوق عارم إلى رؤية وجه حفيدته الصغيرة وهي تغفو على صدر أمها المرتلة لها أناشيد المهد العذبة».
وحين يلقي بو علي بندقيته في الزبالة «سرعان ما أخذ النوم يداعب أجفانه، ثم ما لبث أن أغمض عينيه في حرارة الدفء، وهو يضم بين أجفانهما وجه حفيدته الصغيرة المتطلعة إليه مداعبة لحيته البيضاء، بل وجوه جميع الأطفال في القرية».
تعاطف بو علي مع أطفال القرية الضحية، يقابله تعاطف فدوى طوقان مع الطفل اليهودي «إيتان». وفدوى، التي افتقدت شخصياً الأطفال، فدوى التي كتبت عن الجندي الإسرائيلي الفج، الجندي الذي رأته أمام شباك التصاريح وهي تقطع الجسر إلى عمان، فدوى كتبت قصيدة «إيتان في الشبكة الفولاذية». وإذا كان أحد الأطفال اليهود يفكر بعقلية الجندي: كم يوماً نحتاج حتى نحافظ على الوطن، فإن الشاعرة تخشى عليه من الآخرين، من الكبار، تخشى أن يقتل فيه الإنسان «يا طفلي، أنت غريق الكذبة»، تخاطبه الشاعرة ولا ترى فيه عدواً، وتتمنى لو يبقى الطفل الإنسان. ولعل الإسرائيليين لا يقرأون هذا، لعلهم لا يقرأون إلا ما يرغبون في قراءته. هكذا توقف مستشرق إسرائيلي، ذات مرة، أمام عجز بيت الشاعر عبد الرحيم محمود:

«يلذ لأذني سماع الصليل
ويبهج نفسي مسيل الدماء».

ليقول للعالم: انظروا ما الذي يبهج الفلسطينيين، ولم ينظر إلى قول الشاعر نفسه:

«أبكي على الظالم من رقة
وخنجر الظالم فيّ يلوب».

وأشك في أن الإسرائيليين توقفوا مطولاً أمام قصيدة فدوى المذكورة، كما توقفوا أمام بعض قصائدها التي نظمت إثر حرب حزيران، قصائدها التي منعوها من إلقائها، لأنهم رأوا في كل قصيدة منها قصيدة تخلق عشرة فدائيين، كما قالت فدوى في الجزء الثاني من سيرتها «الرحلة الأصعب».
في «الصورة الأخيرة في الألبوم» يرى بطل القصة الطويلة أمير في (روتي) الشابة اليهودية ابنة الضابط، يرى فيها ضحية عملية غسل دماغ رهيبة. ولا يمانع في صداقتها، بل إنه يصطحبها إلى قريته للتعرف إلى أمه، المرأة الفلسطينية الريفية البسيطة التي تُعقب حين يخبرها ابنها أن (روتي) يهودية: يما، مش كل أصابعك واحد، رافضة بذلك العنصرية، معبرة عن استعداد أهل فلسطين للتعايش مع

اليهود، إذا ما أراد هؤلاء ذلك، وإذا ما أتوا أصدقاء لا جنوداً مدججين بالسلاح.
ربما كان محمود درويش من أكثر من تعاطف مع الضحايا. حقاً إنه في «جندي» يحلم بالزنابق البيضاء، عبر عن الجندي الذي لا يرغب في القتل، الجندي الذي يرغب في الهجرة إلى بلاد بعيدة حتى لا يبقى قاتلاً، مكتفياً بما فعل، وقدم –أي درويش– صورة مكبرة للجندي الواعي، الجندي الإنسان، إلا أنه، فيما بعد، أخذ يعبر عن مواقفه هو من الضحية التي تحولت إلى جلاد. وعلى الرغم من أن الشاعر كتب في بداية الانتفاضة، انتفاضة 1987، قصيدته المشهورة «عابرون في كلام عابر»، قصيدته التي أثارت حفيظة يهود باريس الذين تظاهروا مطالبين بطرده من باريس، حيث كان يقيم، على الرغم من ذلك، نجده يكتب في فترة الانتفاضة قصيدة «هدنة مع المغول أمام غابة السنديان»، وفيها يعبر عن نشدانه السلام «لأولاد أعدائنا في مخابئهم.. للمغول عندما يذهبون إلى ليل زوجاتهم»، ولكن «عندما يرحلون عن براعم أزهارنا الآن.. عنا وعن ورق السنديان».
وربما كان المدهش في أشعار درويش أنه في اللحظات الحاسمة من الصراع ما كان يتخلى عن النظر إلى اليهود أنهم كانوا ضحية. وهو، خلافاً ليزهار سميلانسكي مثلاً، الكاتب اليهودي الذي تعاطف في «خربة خزعة» و«الأسير» مع الفلسطينيين، ولكنه أمام بعض الأحداث اتهم أهل فلسطين بأنهم وحوش بشرية، وهو –أي درويش– خلافاً ليزهار سميلانسكي ما رأى في اليهود كلّهم، في العام 1982، وحوشاً آدمية، وحوش آدمية منذ خلقوا، ولذلك، كتب في مديح الظل العالي ما يلي:

«ضحية قتلت ضحيتها
وكانت لي هويتها».

أنادي أشعيا: اخرج من الكتب القديمة مثلما خرجوا، أزقة أورشليم تعلق اللحم الفلسطيني فوق مطالع العهد القديم، وتدعي أن الضحية لم تغير جلدها.

«يا أشعيا.. لا ترْثِ
بل اهجُ المدينة كي أَحبك مرتين
وأعلن التقوى
واغفر لليهودي الصبي بكاءه».

هؤلاء الذين نشاهدهم يبكون أبناءهم، هؤلاء، آباء وأمهات، بشر مثل الآخرين، وإذا كان الصديق القاص عبد الكريم سمارة جعل عنوان مجموعته القصصية «بشر مثلنا»، فمن حقنا أن نقول أيضاً، هؤلاء الآباء والأمهات بشر مثلهم، وهؤلاء الأبناء هم أيضاً مثل أبناء الآخرين، ولا أدري إن كان الفلسطينيون قادرين على أن يجعلوا من تلك الصورة، صورة محمد الدرة وهو يقتل صورة تمثل طفولة أطفال فلسطين المقتولة، كما جعل اليهود من يوميات (ان فرانك) رمزاً لطفولة أطفالهم المقموعة في فترة الحكم النازي. ولئن قال الإسرائيليون إننا لا نلاحق أطفالكم، وإنما هم الذين يندفعون، فإنما نذكرهم ببعض مقاطع لشاعر يهودي كتب بالألمانية، شاعر غاب اسمه عن ذهني، ولكنه صاحب قصيدة (Hor Israel) (اسمع يا إسرائيل)، شاعر قال ذات مرة: ابحث عن الأسباب، دائماً ابحث عن الأسباب، ولا تكتفِ بالظاهر. ولا أخال أن الأسباب

تخفى على أحد، ومن ضمنهم السيد (باراك) رئيس وزراء إسرائيل الذي قال مرّة: لو كنت مكان الفلسطينيين لقاومت المحلتين، ولا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى عصا موسى حتى تبتلع أفاعي الآخرين، فإذا ما حزن الإسرائيليون لقتلى الفلسطينيين، فما عليهم إلاّ البحث عن الأسباب.

---

* ناقد وأكاديمي فلسطيني يقيم في نابلس.